العرام.. والفطام

محمد حسن فقي

جَبَلٌ شَامِخٌ مِنَ الطُّهْرِ أَعْيَاهُ.. وَأَعْيَا مِنْ حُسْنِهِ وَشَبَابِهْ!
ظَنَّ أَنَّ الحُطَامَ والمَجْدَ والشُّهرَةَ.. تُدني إِلَيْهِ كُلَّ طِلاَبِهْ!
فَتَصَدَّى العِرْبِيدُ لِلْجَبَلِ الشَّامِخِ بَدْراً بِرَغْمِ رَثِّ ثِيَابِهْ!
كَانَ يَسْتَقْطِرُ الحَيَاةَ دَوانِيقَ لِيَحْيَا مِن كَدِّهِ وَاكْتِسَابِهْ!
وَرَآهُ الغِرْبِيقِ لاَ يَعْرِفُ الأَيْنَ.. وَلاَ يَشْتَكِي مَرِيرَ شَرَابِهْ!
كُلَّ يَوْمٍ يَرَاهُ كَالغُصْنِ فِي الدَّارِ.. حَفِيًّا بِأَهْلِهِ وَصِحَابِهْ!
وَبِهِ.. غَيْرَ أَنَّهُ رَافِعُ الرَّأْسِ.. عَيُوفاً عَنْ الخَنَى وَتَبَابِهْ!
كُلُّ مَا فِيهِ مِن ثِمَارٍ شَهِيَّاتٍ.. جَفَاهَا. وَلَمْ تَكُنْ فِي حِسَابِهْ!
وَيَرَاهَا سِوَاهُ تَخْتَلِبُ اللُّبَّ.. وَتَشْفِي الشَّجِيَّ مِنْ أَوْصَابِهْ!
وَهُوَ مِنْ أَجْلِ لُقْمَةِ العَيْشِ يَمْشِي دَائِبَ الخَطْوِ بِالوَنَى غَيْرَ آبِهْ!
لَفَّ هَذِي الثِّمَارَ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ.. ضَنِيناً بِهَا وَرَاءَ إِهَابِهْ!
قَانِعاً بِالقَلِيلِ لِلنَّفْسِ وَالأَهْلِ.. فَحَسْبُ الطُّهُورِ نَزْرُ ثَوَابِهْ!

***

وَتَبَدَّتْ لَهُ بِرِقَّةِ ظَبْيٍ.. مُجْفِلٍ ذَاهِلٍ لِنَظْرَةِ ذِئْبِ!
حَسِبَتْهُ مِنْ قَبْلِ يَطْوِي حَنَايَاهُ.. عَلَى مَنْهَلٍ يَفِيضُ بِعَذْبِ!
فَإِذَا بِالَّذِي تَجَنَّ طَوَايَاهُ.. ضَمِيرٌ يَهْفُو إِلَى كُلِّ ذَنْبِ!
فَاسْتَدَارَتْ تَفِرُّ مِنْهُ.. فَمَا كَانَتْ لِتَرْضَى - وَلَوْ تَرَدَّتْ - بِعَيْبِ!
أَيُّ خَطْبٍ أَصَابَهَا بِنَوَازِيهِ.. فَأَصْمَى بِسَهْمِهِ.. أَيُّ خَطْبِ؟!
أَدْبَرَتْ عَنْهُ وَهِيَ تَرْجُفُ خَوْفاً.. مِن بَلاَءٍ يَرِفُّ مِنْ كُلِّ هُدْبِ!
حَاصَرَتْهَا فَأَجْهَشَتْ وَتَوَارَتْ خَلْفَ بَابٍ وَاسْتَعْصَمَتْ بِالتَّأَبِّي!
وَرَأَتْ زَوْجَةُ المُعَرْبِدِ مَا كَانَ.. فَرِيعَتْ بِصَبْوَةٍ.. وَبِصَبِّ!
حَاوَلَتْ أَنْ تَذُودَهُ وَهِيَ تَبْكِي.. مِنْ خَوُونٍ يَسْطُو عَلَى كُلِّ تِرْبِ!
فَاسْتَهَانَ الغَوِيُّ بِاللَّوْمِ وَاسْتَعْلَى وَمَا قَالَ لِلضَّلاَلَةِ.. حَسْبِي!
قَالَ لِلزَّوْجَةِ المَهِينَةِ.. مَنْ أَنْتِ.. فَإِيَّاكِ أَنْ تَكِيدِي لِقَلْبِي؟!
لَسْتُ أَرْضَى لَهُ القُيُودَ فَإِنِّي.. عِشْتُ حُرّاً أَهِيمُ فِي كُلِّ دَرْبِ؟!

***

وَمَضَى يُفَكِّرُ فِي الغَزَالَةِ.. كَيْفَ يَذْبَحُ طُهْرَهَا!!
فَرَمَى حَبَائِلَهُ.. لِتَفْتَحَ لِلنَّوَائِلِ صَدْرَهَا!
فَهِيَ الفَقِيرَةُ لِلنَّوَالِ.. وَلَنْ تُجَاوِزَ قَدْرَهَا!
هِيَ خَادِمٌ فِي قَصْرِهِ.. ولسوف يهتِكُ خِدْرَهَا!
وَلَسَوفَ أُوهِنُ بِالحُطَامِ.. وَبِالمَكَانَةِ صَبْرَهَا!
مَاذَا عَسَاهَا أَنْ تَكُونَ؟! أَلَسْتُ أَمْلِكُ أَمْرَهَا؟!
مَائِي الفُرَاتُ.. وَمَا أُحَيْلاَهُ.. سَيُطْفِيءُ جَمْرَهَا!
وَأَرَادَ تَجْرِبَةً.. فَحَاوَلَ أَنْ يُقَبِّلَ ثَغْرَهَا!
فَاسْتَرْذَلَتْهُ وَعَنَّفَتْهُ.. فَخَرَّ يَلْثِم ظُفْرَهَا!
رَاعَتْهُ آيَاتُ الطَّهَارَةِ.. وَهِيَ تَنْفُثُ سِحْرَهَا!
وَمَضَتْ تَلُمُّ مَتَاعَهَا.. شَمَمَاً. وَتَرْفُضُ أَسْرَهَا!
أَبَتِ الرِّبَاحَ مِنَ السُّقُوطِ.. فَمَا أُحَيْلَى خُسْرَهَا!

***

وَمَضَى الآثِمُ المُعَرْبِدُ خَزْيَانَ.. بِمَجْدٍ مُهَلْهَلٍ.. وَحُطَامِ!
لَمْ يَنَلْ مِنْهُمَا سِوَى أَلَمِ اللَّوْعَةِ.. مِنْ شَهْوَةٍ بِدُونِ لِجَامِ!
وَاسْتَوَى فِي فِرَاشِهِ خَائِرَ العَزْمِ.. صَرِيعَ الهَوَانِ وَالأَسْقَامِ!
قَالَ لِلزَّوْجَةِ الوَفِيَّةِ.. مَا أَنْكَدَ عَيْشِي.. وَمَا أَذَلَّ هُيَامِي..!
عَلَّمَتْنِي هَذِي الغَرِيرَةُ مَا لَمْ.. أَتَعَلَّمْهُ مِن حَيَاةِ الأَنَامِ..!
فَطَمَتْنِي عَنِ الغَرَائِزِ عُمْيَاً.. وَأَرَتْنِي الدَّرْبَ السَّوِيَّ أَمَامِي!
كُنْتُ كَالطِّفْلِ لاَ يَطِيقُ فِطَاماً.. وَأَنَا اليَوْمَ أَسْتَطِيبُ فِطَامِي!
أَفَأَلْقَى مِنْكَ السَّمَاحَ.. وَقَدْ كُنْتَ عَتِيّاً عَلَيْكَ.. جَمَّ الخِصَامِ!
فَاسْتَكَانَتْ لَهُ.. وَقَالَتْ: لَقَدْ عُدْتَ. فَحَسْبِي هَذَا مِنَ الأَيَّامِ!

جدة